البشر ومتناقضاتهم بخيرها وشرها ، فينفى فى وصفه ما سبق أن ذكره عن غلبة اللذات السائغة عليها . هذا هو تصور الأديب لا رؤية المفكر وتحليله ، على أن الجانب النقدى الذى التفت إليه فى حديثه عن « مصر » هو قوله : « قال الفارياق . وكثيراً ما كنت أتعجب وأقول : كيف صح فى الإمكان وبدا للعيان أن مثل هذه الروس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المهينة المليمة ، المستنكرة المشئومة ، المستقذرة المهوّعة ، المستقبحة المستفظعة ، المستسمجة المستشنعة ، المسترذلة المستبشعة ، تقل هذه البرانيط المكرمة . وكيف أنماها هواء مصر وكبَّرها إلى هذا المقدار . وقد طالما كانت فى بلادها لا تساوى قارورة الفراش»[٩]. ويشير لويس عوض إلى أنه يشير إلى تجبر الترك واستعلائهم على المصريين كأنهم صُنعوا من طينة غير طينة البشر [١٠].

ويبدى الشدياق فى وصفه لمصر وأهلها ملاحظة هامة عن المخدر الذى يتعاطاه بعض الناس ، ولكنه يعللها تعليلاً مخالفاً للحقيقة ، قريباً من التبرير الفنى الذى يلتمس لكل فعل سبباً وجيهاً فيقول : « ومن ذلك أن أهلها يرون كثرة الأفكار فى الرأس يكثر عنها الهموم والأكدار أو بالعكس . . . . . فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل فى ميدان الدماغ حينا من الأحيان ليتوفر لهم فى غيره . وذلك بشرب شىء من